مناقشات

الواقعية لا تعني التشاؤم

بقلم الدكتور محمد النويهي

في عدد نوفمبر ١٩٧٠ كتب الاستاذ عقيل هاشم مقالة بعنوان «لا مكان للتشاؤم» ، يريد بها ان يستدرك بعض المسائل التي سهوت عنها ويؤكد مسائل اخرى لم اعطها حظها الكافي من العناية في القسم الاول من مقالتي «والآن الى الثورة الفكرية» الذي نشر في عدد فبراير ١٩٧٠ .

وهو يقول انه يريد ان يدير معي «حديثا هادئا» . والحق ان مقالته لم تات حديثا هادئا فحسب ، بل جاءت مثالا للنقاش الموضوعي النزيه الذي نود لو زاد منه حظ كتابنا ونقادنا في حوارهم حول المسائل الحيوية الكبرى التي تهم نهضتنا الحديثة .

يخشى الاستاذ عقيل هاشم ان يفهم تسليمي بمدى ما في حجة اسرائيل من الصحة على انه قبول لحجتها هذه . والاستاذ هاشم نفسه لا يفهم كلامي هذا الفهم ، فهو يقول انه لا يتصورني متجها ذلك الاتجاه ابدا ، لكنه يخشى ان يفهم آخرون كلامي على هذا النحو . وانا يسرني ان انتهز هذه الفرصة التي اعطانيها الاستاذ الفاضل لازيد كلامي ايضاحا فاقول : ان تسليمي بمدى ما في حجة اسرائيل من صحة لا يعني قبولي لها . فهذه الحجة تتكون من مقدمتين ونتيجة على النحو الاتي :

١ ـ اسرائيل ارقى من جاراتها العربيات واكثر تقدما وعصرية .

٢ ـ الامة المتقدمة يجوز لها ان تبتلع الامة الاقل تقدما وتفني كينونتها القومية .

اذن : يجوز لاسرائيل ان تبتلع الامة العربية وتفني كينونتها القومية .

وتسليمي مقصور على المقدمة الاولى وحدها . حتى هذه لا اسلم بها تسليما كاملا ، فلقد قلت «ان الحقيقة الدامية هي ان كلامهم ذاك لا يزال ينطبق على جزء عظيم من الوطن العربي الخ ...» والاستاذ عقيل هاشم نفسه يقول «هذا ولا يختلف احد مع الدكتور النويهي في ان جزءا عظيما من الوطن العربي ما زال امامه شوط بعيد حتى يتم تبرئة نفسه من تهم الصهيونية واسرائيل» .

اما المقدمة الثانية فارفضها رفضا تاما . ولهذا ارفض النتيجة رفضا تاما ، كما ينبغي ان يرفضها كل من يؤمن بالقيم الانسانية التي تعلو بالانسان على اصله الحيواني . والا اجزنا للقوي ان يفتك بالضعيف ، ولذي الحيلة ان يخدع قليل الحيلة ، وللغني ان يستمر في ابتزاز الفقير ، وللمتعلم ان يقهر غير المتعلم ، وليس هذا في صميمه سوى ارتداد الى شريعة الغاب . وهذه بالطبع هي الحجة الاستعمارية التي برر بها البريطانيون افتراسهم للهند وغيرها ، وبرر بها الاميركيون افناءهم للهنود الحمر ، ويبرر بها البيض في جنوب افريقيا اضطهادهم للسود والملونين ، واقامها مفلسو الاستعمار على افساد عامد شوهوا به نظرية التطور الداروينى وحرفوها عن مجالها الصحيح ليبرروا بها استمرار البطش والاغتصاب من عالم الحيوان الى عالم الانسان .

لكن الضمير الحديث لم يعد يقبل هذه الحجة ، بل هو يقرر ان كون بعض الامم اقوى او ارقى او اكثر علما وغنى من بعضها لا يجيز لها افتراسها وافناءها او ظلمها وابتزازها ، بل على العكس يوجب عليها ان تساعدها في محاولتها التخلص من تاخرها المادي والثقافي لا كالمعونة المفرضة التي تقدمها الدول الاستعمارية الى اذنابها وعملائها ، وتخص بها سدنة الحكم الرجعي في مختلف الاقطار المتخلفة ، بل مساعدة مخلصة من النوع الذي يتحدث عنه ميثاق الامم المتحدة ، وتحاوله فعلا بعض اجهزتها . لان العالم كله وحدة ولا يمكن ان يستتب فيه سلام او تتحقق سعادة حقيقية للجنس البشري ما دام بين شعوبه ذلك التفاوت السحيق .

هذا ما يقوله الضمير الحديث . ولاشك انه هو ما يقر به الان عدد كبير من المفكرين حتى في البلدان الاستعمارية نفسها ، وربما يجوز لنا ان نقول انه الكثرة الغالبة . لكن ما ينادي به هذا الضمير وتقر به كثرة المفكرين شيء ، وما تفعله الحكومات وتقوم عليه سياسة الدول الغربية حتى يومنا هذا شيء اخر . ونحن نعلم جميعا ما تلقاه الامم المتحدة من التعثر والعقبات في سبيل اقرار مبادئها . فمن الخطأ البليغ ان نعتمد نحن العرب على ذلك الضمير العالمي وحده .

لذلك كان جهدي في مقالتي المذكورة ، كما كان جهدي في مقالاتي الاخرى ، موجها الى استحثاث العرب على تلافي ما في المقدمة الاولى من حجة اسرائيل وحلفائها الاستعماريين من نصيب من الصحة ، لكي يعملوا على تخليص امتنا من بقايا القرون المظلمة ورواسب التخلف واثار الجهالة والرجعية والجمود التي تتذرع بها الصهيونية . وهي محاولة يسعدني ان الاستاذ عقيل هاشم يوافقني على ضرورتها ولزومها . بل انه ليقدر مقالاتي تلك تقديرا كبير الكرم والسخاء ، يستحق مني الشكران العميق ، ويخفف على بعض ما القى من الرجعيين من تجريح ، وما القى من بعض التقدميين انفسهم من تشكيك .

لكن الاستاذ عقيل هاشم ، وان سلم بان النقد الذاتي من اهم مقومات نهضتنا الحديثة ، يشترط فيه ان يرى الايجابيات والسلبيات في وقت واحد . وانا اوافقه على ضرورة رؤية الايجابيات ، ومقالتي نفسها قد ذكرت المنجزات الجوهرية التي تحققت في المجالات السياسية والعسكرية والصناعية والاقتصادية والقانونية ، وان ركزت الحديث على مواطن النقص . لكني اعتقد ان لكل مقام مقالا ، وهو يكون محقا في لومي لو كنت اخص السلبيات بالابراز في حديثي اليومي مع عامة الناس ، او في مقالاتي التي اكتبها للاجانب . فان هذا يكون فتا في عضد جماهيرنا المكافحة واضعافا لثقتها بنفسها ، ويكون اضعافا للقضية العربية وتاليبا لاعدائها من غير العرب ، لكني اكتب مقالاتي المذكورة لهذه المجلة ومثيلاتها من المجلات العربية الثقافية التي لا يرتاب احد في صدق قوميتها . وهذه المجلات الثقافية الرفيعة هي الميدان المشروع الذي يجب ان يستخدمه مثقفو امتنا لسبر اغوار نقصنا وتحليل نواحي ضعفنا المادي والثقافي بكل صراحة وواقعية . والا فاين يفعلون هذا الواجب التام الضروري الملقى على عواتقهم هم وحدهم؟ ولو اتيح للاستاذ عقيل هاشم ان يقرا ما اكتبه باللغة الانجليزية من بحوث لوجد اني وان كنت اسلم بالسلبيات فاني لا ارتكز حديثي عليها ، بل ارتكزه على النواحي الايجابية المشرقة التي لا تلقى التنويه الكافي في اكثر ما يقراه الاجانب عنا .

اما خلافي الكبير مع الاستاذ عقيل هاشم فهو في اعتقاده ان في قولي « الانسان العربي نفسه ليست حالته الراهنة بالحالة التي تمكنه من الفوز في معترك البقاء الحديث » نوعا من التشاؤم الذي لا مبرر له . فلابدا بان اقول ان هذه هي عقيدتي المخلصة التي يحملني عليها بحثي وتفكيري ، فبرغم كل الانجازات التي عددها الاستاذ عقيل هاشم ، والتي اوافقه عليها ، ما زلت اعتقد ان جانب السلبيات يغلبها للاسف الشديد ، اذا نظرنا الى الوطن العربي في عمومه . لكن هل في

جملتي تلك تشاؤم ، مبرر ،او غير مبرر ؟ ان التحديد المهم في تلك الجملة هو قولي « حالته الراهنة » .ولو انني قلت ان الانسان العربى لن يصل ابدا الى حالة تمكنه من الفوز ،لكان الاستاذ الكريم محقا في رميي بالتشاؤم ، بل لكان عملي مجرد انهزامية مخربة وشمانة حاقدة .

لكن جهدي كله ، الذي ما زلت ابذله منذ بدأت اكتب في صحف السودان في سنة ١٩٤٧ ، قائم على املي الكبير في ان من الممكن تغيير هذه الحالة . ولولا هذا الامل لما تكلفت ما تكلفت في نقد اوضاعنا وقيمنا ، ولقنعت بعملي الاكاديمي المحض ، منزويا في برجه العاجي ، محتميا به من عواصف الجدل والتجريح والتشكيك .

اما وقد قلت هذا ، فان لي الحق ان اكرر والح في التكرار،ان الحالة الراهنة للانسان العربي ، لو سمحنا لها بالاستمرار ، ولم تبذل اقصى الجهود واعنفها واضناها في سبيل تغييرها – وتغييرها تغييرا جذريا شاملا – لن تمكنه من الفوز في معترك البقاء الحديث، اذا تذكرنا ان هذا المعترك لا مجال فيه بعد لمجرد الاعتماد على المبادىء السامية والضمير المنيقظ ، بل الفوز فيه للاسف الشديد لا يزال مرهونا بالقوة . ولقد اشرت في مقالتي المذكورة الى ان التاريخ سجل للحقوق المضاعة ، التي ضيعها اهلها لانهم لم يلتمسوا الاسباب المادية الكفيلة باحقاقها .

ان من افدح الخطأ ان نكتفي بان قضيتنا عادلة وان الحق في صفنا ، فلا نسعى الى تدعيمه واستخلاصه بتقوية انفسنا في هذا المعترك الضاري . وهذه التقوية لن تكون الا بالادراك الواقعي الصارم لمدى نقصنا وتخلفنا عن الركب الحضاري المعاصر ، حتى يدفعنا هذا الادراك الى ابراء انفسنا البرء التام من تهم الجمود والرجعية والتأخر التي لا يفتأ اعداؤنا يستغلونها ضدنا . وهو ما يوافقني عليه الاستاذ عقيل هاشم في اول مقالته اذ يتحدث عن حاجتنا «.الى الانصراف لتعزيز ثورتنا الفكرية حتى نعي تماما درس الهزيمة وحتى نشيد البناء الحضاري الشامل لكافة اركان حياتنا المعاصرة في سبيل ان تكون الغلبة اخيرا لنا في صراعنا مع الخصم . « وفي اخر مقالته اذ يقول « وسيعلمنا الانصهار في المعركة اشياء كثيرة من تلك الاشياء التي اثارها الدكتور النويهي في بحثه .»

وفي هذا الصراع الفكري المرير الذي يوافقني الاستاذ الكريم على ضرورة فيامنا به، وتحملنا لآلامه ومخاطره ، نستطيع ان نجد العزاء والتشجيع في جملة جيدة وردت في مقالة الاستاذ سامي خشبة التى تلت مقالته مباشرة في نفس العدد، وهي قول الاستاذ سامي خشبة «ان مدائح اصدقائنا تطربنا ، وتشجيعهم يشد من ازرنا بغير جدال ،ونحن في حاجة الى معونتهم دائما ، ولكن تقدمنا متوقف بالدرجة الاولى على وضوح رؤيتنا وعلى تفرقتنا الحاسمة بين الاصدقاء الحقيقيين وبين الاعداء الحقيقيين وبين الاصدقاء المزيفين والاعداء المزيفين ايضا .»

هل لي ان اضع خطا تحت قول الاستاذ سامي خشبة « بالدرجة الاولى » ؟

القاهرة

محمد النويهي

تأثر يبعث على الشك ..

بينما كنت انصفح اعداد السنتين المنصرمتين من مجلة «الآداب» المتكدسة بصورة عفوية فوق رأس المكتبة استوقفتني قصيدة تحت عنوان (غضب) العدد الرابع نيسان ١٩٦٨ ، الصفحة ٣٧ للشاعر الاردني خلدون الصبيحي شعرت ان شخصية صلاح عبد الصبور الشعرية قد تسربت اليها بصورة لا تترك مجالا للشك وليس ذلك من قبيل وقوع الحافر على الحافر او الظل على الظل نتيجة تماثل في تجربتين شعريتين وانما من قبيل المس المباشر والمكشوف لبضاعة الغير والذي خلف بصمات يشتم من تساوق خطوط الطول والعرض – طعما – ولونا – ورائحة – ان حادثة سطو اليمة قد وقعت وهاك القاسم المشترك بين القصيدتين :

١ – الجو النفسي لقصيدة عبد الصبور نفس الجو النفسي لقصيدة خلدون

٢ – الوزن الواحد في القصيدتين

٣ – توافق غالبية الالفاظ والمعاني وان اتت احيانا محورة ومغلفة نوعا وكما للتدليل على ذكاء مستفيض في التناول وسرعة بديهة في التمثل .

٤ – الرؤيا الشعرية الواحدة .

اليكم المقاطع التالية قرائن ادبية دالة .

خلدون : لو كانت تروى من ظمأ كلمات الحب
لكتبناها في كل مكان

عبد الصبور : لو كنا نملك شيئا غير الحب
لبعثرناه فوق رؤوس الاحباب

خلدون : لو كان القلب المثقل بالاحزان
نغسله الالفاظ الخضراء
لأذبناها في الماء
وفرشنا الألسن في التيار ... لكن الجرح ...

عبد الصبور : لو غلبانا من ذهب مكنوز خلف جدار
لأذبنا الفرحة في اكواب الاحباب
وملأنا راحات الاحباب .. لكنا حين ....

خلدون : الجرح الغاضب لا يحلم
لا تفتنه الكلمات

عبد الصبور : لفظ حالم
فالجرح تدغدغه الالفاظ

وليس عسيرا على القارىء من العودة الى قصيدتي «كلمات لا تعرف السعادة» – ص ١٤ ، «الالفاظ» – ص ٢١ من ديوان اقول لكم للوقوف على الحقيقة .

وفي نهاية المطاف اود ان اتوج كلمتي بنصيحة متواضعة ابثها في اذن السيد الصبيحي .. عدم كتابة قصائده مباشرة بعد الانتهاء من قراءة شعر غيره لان النفس امارة بالسوء وبخاصة اذا كان الطعام متقنا وشهيا هذا في حال افتراض حسن النية وأما في حال افتراض سوء النية فان عملية الجلوس على موائد الغير لا تخلق من الانسان شاعرا مطبوعا ولا تشيع السعادة والدفء الحقيقيين في النفس وان خيل ذلك .

وللسيد الصبيحي تمنياتي الخالصة

زهرة الجليل